

الهوية والدمج في خطاب منابر الإسلام في أمريكا

استعراض تاريخي ولقاءات ميدانية

يامن نوح
باحث مصري



قسم الدراسات الدينية

ملخص:

يحاول هذا البحث تحليل طبيعة الخطاب الديني الإسلامي في الولايات المتحدة وخصائصه المميزة، وذلك من خلال تقديم عرض موجز لتاريخ نشأة وتطور المؤسسات الدعوية الإسلامية في أمريكا، منذ أن وصل المسلمون إليها، وحتى الآن، ثم يعرض المقال بعد ذلك ملخصاً للقاءات ميدانية عقدها الكاتب في رحلة عمل إلى الولايات المتحدة مع نماذج من الدعاة الإسلاميين في أمريكا في مدن مختلفة.

تقديم:

الولايات المتحدة الأمريكية مجتمع شديد الخصوصية؛ فهو من ناحية مجتمع يحمل قدرا هائلا من التنوع الإثني والقومي والديني والثقافي، لكنه في الوقت نفسه، ذلك المجتمع الذي يقدم وعدا- على الأقل يقدم وعدا بالرغم مما يوجه لهذا الوعد من نقد وتشكيك- بأن يكون "قدر صهر" عملاق يدمج كل هذه العرقيات والقوميات المختلفة، ويحولها إلى مجتمع واحد يعيش تحت مظلة دولة واحدة أو "متحدة".

وهو من ناحية أخرى كذلك مجتمع يتشكل حديثا، وتستطيع أن تلمح تغيراته الحية أمامك، والتي بإمكان أي رجل مسن يكبرك بجيل أو جيلين أن يروي لك كيف كانت الأمور مختلفة تماما فقط منذ خمسين أو ستين سنة، وكذلك مازال بإمكان كثير من الأمريكيين أن يروي لك بدقة من أي البلاد أتت عائلته، والتي- عادة- ما يزال انتمأؤها إلى بلد المنشأ حاضرا في تركيبها الثقافية والاجتماعية، ولم تصل بعد إلى تركيبة "أمريكية" خالصة دون "شوائب".

فالمجتمع الأمريكي ليس بمجتمع ضارب في القدم، كمجتمعات الشرق الأوسط أو الأقصى أو حتى المجتمعات الأوروبية ذات التاريخ الاجتماعي الطويل، لكنه مجتمع حديث بكل المقاييس، مازال تاريخه القريب حاضرا، ومازالت بناه الاجتماعية تخوض تغيرات عميقة ومتابعة، برغم كل الإنجازات التي وصلت إليها "الدولة" من الناحية التقنية والاقتصادية والعملية، وبرغم تخطي هذا "المجتمع" لكثير من الإشكاليات الاجتماعية الضخمة التي خلقتها بيئة "أرض الأحلام" الأولى، في ذلك الزمن الذي كانت تتقاطر فيه سفن المهاجرين الفقراء من شتى بقاع الأرض، يحدوهم الأمل في بداية جديدة، وتتلاعب برؤوسهم خيالات تلك المرأة ذات التاج التي ترفع شعلة "الحرية" على سواحل نيويورك.

هذه الخصوصية الشديدة في تركيبة المجتمع الأمريكي هي ما تضع المسلمين هناك أمام تحديات وإشكاليات مختلفة عن تلك التي يواجهها أقرانهم من أبناء المنطقة العربية أو غيرها، وهو ما يفرض عليهم بطبيعة الحال شكلا مختلفا للخطاب العام، ومداخل مختلفة لمعالجة الكثير من القضايا المتداولة.

وقد أتاحت لي الظروف، أثناء زيارة عمل إلى الولايات المتحدة، دامت مدة شهر ونصف الشهر تقريبا في نهاية عام 2012، أن أختلط عن قرب بدوائر المجتمعات الإسلامية في المدن التي زرتها، وأن ألتقي عدة نماذج من الدعاة الإسلاميين الذين يقومون بدور اجتماعي يستحق الاهتمام في دوائر نشاطهم.

لكن قبل أن أسترسل في الحديث عن التجربة الشخصية، يحتاج القارئ مني أن أمهد لذلك بعرض صورة تاريخية مختصرة عن "الإسلام والمسلمين في أمريكا"، وكيف تطور وجودهم في هذا المجتمع المتنوع بسياقه التاريخي شديد الخصوصية، والأهم هو المؤسسات التي انبثقت عن وجودهم، وذلك حتى يستطيع القارئ بعد

ذلك أن يستخلص دلالات مهمة من وقائع التجربة الشخصية، وأن يصل معي كذلك إلى إدراك ما اعتبرته مفتاح فهم الخطاب الديني الإسلامي في الولايات المتحدة.

الإسلام والمسلمون في أمريكا: صورة تاريخية

لا تكاد تخرج القصص المتداولة عن تاريخ الإسلام والمسلمين في أمريكا عن بعض القصص الملهمة التي تناولتها الدراما السينمائية من أمثال قصة "كاسيوس كلاي" الذي تحول بعد إسلامه إلى "محمد علي"، وكذلك "مالكوم ليتل" الذي تحول إلى "مالكوم اكس"، وكان من أكثر الشخصيات إثارة للجدل، لكن قصة الإسلام والمسلمين في أمريكا في الحقيقة أكثر عمقا وأشد تعقيدا مما هو متداول عادة بين الناس.

فربما لا يعلم البعض أن العديد من الدراسات ترجع بتاريخ المسلمين في أمريكا إلى ما قبل "كريستوفر كولومبوس" ورحلته الأولى إلى أمريكا في العام 1492، حيث تدل العديد من الشواهد التاريخية والإثنوغرافية على وجود مسلمين أفارقة من "الماندنكا"، وكذلك مسلمين أندلسيين في الأمريكتين قبل زيارة "كولومبوس" لها بعدة قرون¹، لكن – ولأن هذه المسألة ما تزال خاضعة للجدل التاريخي والآثاري والأنثروبولوجي، فلن نعتبرها – هنا على الأقل – نقطة بدء القصة، ولأنها في الحقيقة – صحت أم لم تصح - لا تؤثر كثيرا على موضوع هذا المقال، ولذلك سنعتمد على ما هو متفق عليه من تاريخ تطور المجتمع الأمريكي بدءا من اكتشاف "كولومبوس" للأرض الجديدة.

تبدأ قصة المسلمين مع أمريكا، بعد اكتشافها مباشرة، مع وفود العبيد الذين تم جلبهم من غرب وشمال أفريقيا، والذين تقدرهم التقديرات المعاصرة بما بين 15 و20 مليون فرد.²

فإذا علمنا أن قائمة القبائل المسلمة التي كانت تسكن المناطق التي جلب منها هؤلاء العبيد تشمل قبائل الفولبي، فولاني، ماندينكا، ماندارا، ولوف، وأشانتي، ويوروبا وغيرها من أكبر القبائل التي كانت تعيش في غرب وشمال أفريقيا وأغلب سكانها من المسلمين؛ فبإمكاننا أن نتصور عدد المسلمين الذين تم جلبهم إلى "العالم الجديد" عبيدا للعمل في المزارع والمناجم والمستعمرات.

¹ - هناك العديد من الأعمال البحثية الجادة التي تؤكد الرأي القائل بوجود إسلامي أفريقي وأندلسي في الأمريكتين قبل رحلة كولومبوس ومنها:

Mroueh, Y (1996) Pre-Columbian Muslims in the Americas, The As-Sunnah Foundation of America.

Fell, B (1980) Saga America: A Startling New Theory on the Old World Settlement of America before Columbus, Times Books, England.

² - جيرالد ف. ديركس، المسلمون في التاريخ الأمريكي: إرث منسي، ترجمة سعد البازعي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

وكان هذه الكيانات والحركات كانت مؤسسات "مقاومة عرقية" لحالة الاضطهاد والانتقائية العرقية الشديدة التي سادت المجتمع الأمريكي طوال القرون الأربعة الأولى، منذ اكتشاف الأمريكتين وحتى منتصف القرن التاسع عشر، أكثر منها مؤسسات "دعوية إسلامية"، وبعد نجاح حركات الحقوق المدنية للمواطنين في التغلب على جزء كبير من هذا التمييز العرقي، وتوافد المهاجرين من شتى أنحاء العالم على الولايات المتحدة، صارت هذه المؤسسات تؤدي وظيفة "التمايز العرقي" في مواجهة حالة التنوع الشديدة والتي تفرض تهديدا بالذوبان على مهاجرين من عرقيات وإثنيات مختلفة.

ثانياً: الاختلاف الظاهر في المعتقدات العامة عن الإسلام التقليدي

ويرجع ذلك لعدة أسباب من أهمها أن الإسلام الذي دخل أمريكا مع العبيد، جاء من قبائل هي بالأساس استقبلت الإسلام ودمجته مع عقائدها القبلية القديمة؛ فنتج عن ذلك اختلاط عقدي كبير شمل العقائد والشعائر، وانتقل مع العبيد المهجرين إلى الأرض الجديدة.

والسبب الثاني والأكثر تأثيراً هو "التحويلات العرقية" للعقائد، والتي صاحبت نشأة المؤسسات والحركات الإسلامية بشكل عرقي كما سبقت الإشارة.

فحركة "معبد العلم المغاربي" كانت تتبنى أفكاراً تربط بين أصول "الأفارقة الأمريكيين"، وبعض الشعوب المذكورة في العهد القديم، كما كان لها "قرآن" خاص يختلف كثيراً عن القرآن المتداول بين المسلمين، ألفه مؤسس الحركة بنفسه.

وكذلك حركة "أمة الإسلام"، التي كان من معتقداتها المحورية "قدسية" الرجل الأسود، وكيف أنه كان موجوداً عند بدء الخلق، وكان يعتقد أعضاؤها كذلك بأن الرجل الأبيض ما هو إلا "مسخ" من "الرجل الأسود العظيم"، وهكذا دخلت العديد من الأساطير العرقية، وتضافرت مع العقائد الإسلامية التقليدية فأنتجت أشكالاً عقدياً وشعائرياً مشوهة.

والسبب الثالث هو اختلاط عقائد هذه الحركات بالثقافة المسيحية في البيئة الجديدة؛ فحركة معبد العلم المغاربي مثلاً، كانت تستخدم بالتبادل مثلاً كلمتي "الله" و "آب"⁸ للدلالة على الإله.

لكن - وفي نهاية المطاف - لا يمكن أن نغفل أبداً التحولات التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين، والتي شملت حركات تحول هائلة في العديد من هذه الحركات لتلقي بنفسها وبالآلاف من أعضائها داخل التيار الرئيس للمعتقدات الإسلامية التقليدية، مثلما حدث لمؤسسة "أمة الإسلام" بعد وفاة قائدها "اليجا

⁸ - من المعروف أن كلمة "آب" هي اللفظة المسيحية للدلالة على الإله.

بدأ برنامج اليوم مبكرا في حوالي الثامنة صباحا بالمشاركة في مسيرة ضخمة بالأقدام، تنظمها مجموعة من الجمعيات المحلية لإحياء الاحتفال بعيد الشكر، وكذلك لجمع التبرعات للمشردين، ثم تلا ذلك التوجه إلى مبني الكنيسة، وتقسيم العمل بين الشباب ومجموعات أخرى جاءت للمساعدة في البناء، ثم الغداء بتناول الديك الرومي الشهير، احتفالاً بعيد الشكر الأمريكي في منزل أسرة مسيحية قريبة وبصحبة أسرة أخرى يهودية.

برنامج اليوم بالكامل - كما هو واضح - موجه نحو محاولة دمج هذه المجموعة من الشباب المسلم في المجتمع الأمريكي، و"فك الارتباط" بين الدائرة القومية الخاصة بأسرته و"إسلامه"؛ فالشباب كان بينهم من هو من أصل سوري، وفلسطيني، ويمني، وتركي، وجميعهم كانوا أبناء لأسر جاءت مهاجرة إلى الولايات المتحدة، ومن خلفيات اجتماعية واقتصادية مختلفة.

لم يكف الرجل طيلة المسيرة الصباحية - التي امتدت لأكثر من ثلاثة كيلومترات عابرة فوق جسر تينيسي الشهير - عن دفع الشباب إلى التواصل مع الجمهور وتوصيل رسالة مفادها "إننا مسلمون، وإننا جننا هنا للاحتفال معكم بما يجمعنا سوياً"، وكذلك كان يقول بنفسه للناس.

أثناء المسيرة توقفنا دقائق للراحة، وجلسنا في شكل دائرة، وأدار الإمام جلسة تعارف سريعة، ثم طلب من كل واحد أن يشارك المجموعة بخواتمه حول اليوم وحول تواجدهم فيه.

معظم مشاركات الشباب كانت تدور حول إحساسهم بما يشبه "العزلة"، وعدم القدرة على الانخراط بشكل كامل في المجتمع الأمريكي، والبعض عبر عن إحساسه بعدم تقبل المجتمع الأمريكي لهم بما يماثل غيرهم من الأمريكيين.

بعد انتهاء المسيرة الصباحية ووصولنا إلى الكنيسة وتناول الإفطار قبل بدء العمل، تحدث الإمام يحيى هندي لدقائق مع المجموعة عن كيفية التواصل والدعوة الإسلامية في مجتمع مسيحي، ولفت نظر الشباب إلى مجموعة من الأخطاء الشائعة التي يقع فيها الشباب المتحمس عادة.

وأثناء يوم شاق من العمل في حديقة الكنيسة، تسنى لي أن أحاور الإمام يحيى هندي، وأن أناقشه في العديد من الأمور المتعلقة بطبيعة خطابه الإسلامي كداعية يعمل في نطاق مجتمع له ما يميزه.

دار الحديث عن العديد من الأسئلة الشائكة بدأت بطرح مسألة "الدولة الإسلامية"، والأزمة الكبرى في التاريخ الإسلامي التي أعقبت مقتل "عثمان بن عفان"، وتأثيرها الذي يمتد حتى اليوم في الفكر الإسلامي بمختلف مذاهبه، وفي الحقيقة كانت "أجندتي الخفية" من وراء السؤال هي جلب الرجل إلى أكثر المناطق إشكالية في الفكر الإسلامي، وربما تكون هي أكبر الأزمات التي تضع المسلمين دائماً في مواجهة "الدولة القومية" بمفهومها الحديث.

كان جواب الرجل في الحقيقة شديد المرونة في هذه المسألة، كما كان متجاوزا للإشكالية بشكل كبير، إذ رأى أن مفهوم "الدولة" بشكله الحديث هو مصطلح غربي حديث، لم يكن موجودا بنفس دلالاته في زمن الأزمنة، وبالتالي "محاكمة" ذلك الزمن بمفاهيم الحاضر ليس هو الخيار الصحيح، وكذلك قال إنه انطلاقا من مبدأ أن الكمال لله وحده؛ فهو لا يرى أية مشكلة في تقييم أفعال الصحابة جميعا، أصابوا أم أخطأوا، وكونهم شخصيات عظيمة لا يمنع أبدا حدوث أخطاء، كما أشار إلى استحالة معرفة تفاصيل الأحداث في الزمن القديم بالشكل الذي يمكننا من الوصول إلى حكم دقيق.

وفي المقابل، استخدم الرجل مصطلح "الإمبراطورية" للدلالة على الدولة الإسلامية، والتي رأى أنها قد نجحت بالفعل في بعض الأحيان بأن تحكم نفسها وفق "منظومة القيم الإسلامية"، بينما فشلت على الجانب الآخر في أحيان أخرى في ذلك، وهو شيء لا يمكن الحكم عليه بدقة كذلك، بينما الشيء الوحيد الذي يمكن التوثق منه هو ذلك النمط الذي تحدث عنه القرآن الكريم، وهو "الغرور" الذي يعتبره "الدودة" التي بإمكانها أن تهدم أية أمة عظيمة، وهو ما يرى أنه حدث مع "الإمبراطورية الإسلامية"، والتي أصابها الغرور بتوسعها المطرد، وبذلك فقدت "الاجتهاد" - وهو ما يستخدمه هنا بدلالة "الابتكار" - وبالتالي صارت الأمة "تقليدية"، وما هو أكثر من ذلك هو عندما يطال الغرور منظومة "العدالة"؛ فعندما تحكم بغرور وبغير عدالة - والخطاب مازال للإمام - سترحل تلقائيا، وما حدث هو أن بدأ المسيحيون واليهود كأقليات في فقد مكانتهم وتواجدهم الاجتماعي، وكذلك فقد العلماء والمثقفون مكانتهم كما حدث مع أحمد بن حنبل وأتباعه، وبالتالي يؤكد مرة أخرى على أنه إذا بدأت - كدولة - في ملاحقة أقلياتك ونخبك المثقفة والتي يمثل اختلافها معك تحديا مفيدا لك، سيتوجب عليك أن ترحل فورا (ولاحظ هنا أيضا التأكيد على مسألة دمج الأقليات كأحد أساسيات ومقومات الدولة في خطاب الرجل).

وحول مسألة التنوع المذهبي والثقافي، قال إن اتساع الدولة الإسلامية في بقاع متباعدة كالعراق والشام والحجاز ثم آسيا وأفريقيا قد أدى إلى اختلاف حصيلة روايات الحديث بين المناطق المختلفة، وهو ما أدى بعد ذلك إلى اختلاف المذاهب، بينما لا يجب الخوف من جمع كل المصادر الآن ومقارنتها بالنص القرآني الذي هو مشترك بين المسلمين جميعا، وكذلك هو نص محفوظ - بوعد الله على حد تعبيره - وكذلك مقارنتها بالحقائق التاريخية، وهو ما سيعيد تشكيل الثقافة الإسلامية بشكل يخرجها من الدائرة المذهبية.

وكأحد أهم الأمثلة على ذلك - والمرتبطة تماما بمسألة الدولة بمفهومها الحديث في مقابل مفهومها المتداول في الفكر الإسلامي - تناولنا مسألة "حرية الاعتقاد"، وهو ما قادنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن قضية "حد الردة"، وفي ذلك رأى أنه بالرغم من أن الشائع في كتب الفقه عن "حد الردة" أنه "الاستتابة والحبس حتى الموت"، فإنه يرى أن القرآن يحتوي على 47 آية تقريبا تتحدث عن الردة، بينما لا تذكر أية آية منها عقوبة دنيوية للمرتد، في حين تذكر آيات أخرى عقوبة محددة دنيوية للزنا، والذي يجمع العلماء على أنه "جريمة" أقل

حجما من الردة، وكذلك توجد أحاديث صحيحة تتحدث عن أناس ارتدوا عن الإسلام في عهد الرسول والصحابة ولم يتعرض لهم القانون، وهو ما يراه تناقضا يدعونا للتفكير ومحاولة مساءلة ما وصل إلينا من التراث.

وهكذا، في هذه المسألة وغيرها من فكر الرجل، تلمح محورية مسألة الدمج في "مجتمع الدولة" ومحاولة معالجة المفاهيم المعوقة التي تمنع الشباب المسلم عن الاندماج من الناحية الثقافية.

وعلى الجانب الآخر من المتصل، كان خطيب مسجد "الفاروق" بمدينة أتلانتا بولاية جورجيا، والذي زرته لأداء صلاة الجمعة.

بمجرد أن تدخل إلى المسجد أو حتى المنطقة المحيطة به، تشعر وكأنك قد غادرت الولايات المتحدة إلى إحدى مناطق جنوب شرق آسيا؛ فالوجوه والأزياء واللغة والسلوكيات تغلب عليها هذه السمات، وكذلك يكثر بانعو "السبح" و"السواك" و"كتيبات الأذكار" حول المسجد وخاصة يوم الجمعة، وهي الأجواء نفسها التي تشهدها يوم الجمعة في بلادنا العربية كذلك.

خطيب المسجد أيضا كان يبدو من لهجته أنه آسيوي الأصل، وقد أصر على تلاوة الخطبة باللغة العربية – يبدو أنه كان اتبعا لما تقول بعض المذاهب الفقهية بعدم جواز خطبة الجمعة إلا بالعربية – تلتها إقامة الصلاة، ثم خطبة أخرى باللغة الإنجليزية يسميها رواد المسجد "البيان"، (وذلك حتى لا تعتبر بديلا عن "الخطبة").

موضوع الخطبة كذلك كانت له دلالة، حيث تحدث الخطيب عن "الأسرة" وكيفية إدارتها، بما في ذلك طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث أكد الخطيب طوال الخطبة وبشكل متكرر على "طاعة الزوجة لزوجها"، وكذلك تحدث عن تربية الأبناء، باعتبارها من الوظائف الرئيسة للزوجة.

تلمح في طبيعة تناول موضوع الخطبة شكلا من أشكال "استيراد" نموذج الأسرة الشرقي؛ فالتأكيد على أن تربية الأبناء مثلا من واجبات الزوجة يعفي عادة – ولو بشكل ضمني – الزوج/الرجل من مهامه التربوية، وهو خطاب ثقافي مشابه لما نراه في مجتمعاتنا العربية عادة، وكذلك التأكيد المتكرر على "طاعة الزوجة لزوجها" يجلب إلى الأذهان نفس توزيع الأدوار الذي تقترضه الثقافة في مجتمعاتنا الشرقية.

مجمل الخطبة وتوجهاتها كان تأكيدا على الهوية واستيرادا للثقافة المحلية أكثر من كونه تناولا لمواضيع مطروحة على ساحة الجدل تخص حياة المسلمين في هذا المجتمع الخاص.

خلاصة:

ربما لا تصلح هذه المقتطفات التي تم عرضها من لقاءين ميدانيين في استخلاص نتائج تصلح للتعميم على مجمل الخطاب الإسلامي في الولايات المتحدة، لكن عرضهما في إطار العرض التاريخي السابق لهما له دلالة مهمة، ويضع هذه المقتطفات في سياقها الأكثر دلالية.

وقد اتضح من خلال النموذجين، كما من خلال السياق التاريخي الذي سبقهما كيف أن إشكالية "الدمج والهوية" تحتل مكانة مركزية في مجمل الخطاب الإسلامي في مجتمعات المسلمين في الولايات المتحدة، متراوفا بين خطاب يصر على "الدمج"، ويسعى إليه جاهدا بحل الإشكاليات الثقافية والاجتماعية التي تعيق المسلمين عن الاندماج في "قدر الصهر" الأمريكي، بينما على الجانب الآخر من المتصل يوجد الخطاب الذي يصر على "تأكيد الهوية" وحماية مجتمع المسلمين التابع له من "الذوبان" داخل "قدر الصهر" نفسه، الذي بقدر ما يعطي وعدا بالاندماج وتوفير مظلة اجتماعية متناسقة يوما ما، بقدر ما يرسل تهديدا بالذوبان وضياع الملامح الثقافية للدوائر الأصغر.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com